أصول التعليل عند الخليل من خلال كتاب سيبويه و إيضاح الزجاجي.

رشيد حليم

قسم اللغة العربية و آدابهـا
جامعة باجي مختار – عنابة

أستلم في01/07/02 – قبل في01/12/05

يعتبر علم اللغة (1)جزءا من المعرفة الإنسانية (2) و يعد علم النحو قاعدته الركينة حيث يطمح إلى إقامة بناء شامل للظواهر اللغوية(3) كما يسعى إلى إبراز ما للقواعد التركيبية من سلامة و وجاهة وفق ما تتطلبه عملية التعليـق و مسالك النظم (4)

و لقد أيد اللغويون منذ القدم فكرة البحث عن مجموع العوامل التي تستقر خلفها تلك الظواهر اللغوية. (5)

و كان لعلماء العربية منذ القدم إحاطة بهذه المعرفة فسعوا إلى تأصيل قواعدها و بناء أصولها، و كان مبتغاهم الأصيل البحث في أفانين العربية عامة و علم النحو خاصة (6) و انصب اهتمام هؤلاء العلماء على دراسة النحو و ركزوا على منهجه ، و جاء تركيزهم بحثا و تنظيرا على منهج العلة كنواة رئيسية تتساهم فيها العلوم جميعها، دون إقصاء لعلم النحو أو غيره.

و لقد بنوا مبحث العلة على خطوات سليمة، ظلت شامخة لا يغفل جديتها دارس و لا يغمط أهميتها باحث، وظل هذا المبحث من أعرق الأصول المنهجية التي وطن بها علم العربية، و رسخ بها نظرياته ذلك أن سلامة الأداء اللغوي في العربية و غيرها لا ينسجم إلا بصحة القاعدة و سلامتها، و القاعدة الصحيحة تستخلص بتوظيف الدليل العلمي و البرهان العقلي، ومن ثمة تلازمت هذه الأشياء فالقاعدة مرتبطة بالنحو و النحو مرتبط باللغة، و اللغة مرتبطة بالفكر و الفكر متصل بالواقع، و الواقع يقوم على التقنيين و التقعيد لأن أساسه الانتظام، و في هذه المتواليات يؤكد أحد منظري العلل أن النحو علم قياسي و مسبار لأكثر العلوم لا يقبل إلا ببراهين و حجج (7)

و شاء للدرس اللغوي العربي إذا أن يتأسس – كغيره- على مبادئ النظر و أسس التبرير، و يتميز علماؤه بأنهم معللون (8)، و يغالبهم هذا المنحى حتى عم على الفكر النحوي قاطبة . فلن يتسنى استنتاج الأحكام دون بسط التعليل و لن تستقيم النتائج دون استقامة الدليل. و أصبحت هذه الأساليب

الذهنية ملجأ النحاة و مقاصدهم حتى تمكنهم من تفسير الظواهر اللغوية الخفية و التدليل على ما يتحكم في ضروب المعطيات اللغوية من تناسق و انسجام.

1 - المدونة العلمية

إن الناظر في تراثنا العربي، و في هذا المجال خصوصا تستوقفه وثيقتان علميتان ورد فيهما حديث مستفيض عن المعرفة المتعلقة بالتعليل اللغوي. و تنسب هاتان الوثيقتان إلى الخليل بن أحمد [ت 175 هـ] (9) أعظم رجل بحث في الدرس اللغوي العربي، و نعتقد أيضا أن الوثيقتين هما أقدم مما وصلنا في التقعيد لأبواب التعليل، و أعظم مساهمة في التنظير لمبادئه.

أما الوثيقة الأولى : فهي كتاب سيبويه [ت 180هـ] و هو كتاب عظيم في مسائل اللغة، كان لسيبويه الفضل الأكبر في أنه جمع و استوعب و سجل و أما الخلق و الابتكار فقد كانا من نصيب الخليل في الأعم مما اشتمل عليه كتاب سيبويه . فكان الخليل الأساس الأول في نشأة الحركة النحوية (10).

و ذهب أحد اللغويين المحدثين إلى أن أول من شاهدنا في أثره النحوي استخدام مصطلح النحو هو الخليل (11) و ذلك في قوله مادحا أستاذه : عيسى بن عمر[ت 149 هـ].

بطلَ النحو جميعًا كلّه غيرَ مَا أحدثَ عيسَى بن عُمر

و قد تميز الخليل بسعة الاطلاع على علوم العربية و اللغة على حد سواء: "فان دوره في بناء النظرية النحوية يضعه في منزلة بين النحاة لم يبلغها أحد قبله و لا أحد بعده حتى تلميذه سيبويه" (12).

و ثاني هاتين الوثيقتين ذلك الحديث المطول الذي أورده صاحب الإيضاح و قد نسبه إلى الخليل بن أحمد (13) و لم نعثر- فيما وقع بين أيدينا- من تنكر لنسبة هذا النقل الطويل و قائله: الخليل بن أحمد. و لذلك أشار العلماء القدامى إلى فضل الخليل في إرساء علم النحو واستخراج قواعده، فقد ألمع أحدهم منبهرا بجهود الخليل في علم اللغة عامة و علم النحو خاصة، و منهج التعليل أخص فقال: "و الخليل بن أحمد لا يُنكر فضله في استنباط ما لم يسبق إليه من علم العروض و علل النحو" (14)

و مما يستحسن الإشارة إليه أن الوثيقتين شملتا حديثا متخصصا عن العلل، و بعبارة أخرى أن الوثيقتين دلتا على أن العلل كانت كامنة ضمنية فأخرجها الخليل و جسمها مصرحا بها، مفصلا القول فيها. ومما يمكن أن نستخلص من النصين المذكورين: إن للخليل فضلا كبيرا في تعليل القواعد التي صاغها أو أوردها ثم إن كلام الخليل يدل على أن العناية بالعلل لم تكن مجرد

بوادر أو طفرات في عصره، بل إن الحديث عنها تجاوز ذلك الطور، فنشأ جدالا تناول سداد و وجاهة هذا النوع من العمل النحوي و صحة التفكير فيه. و من جهة أخرى تضمن تلميحا إلى غاية النحوي من التعليل حيث تتضح معالمه، وتستبين سبله، إنه يسعى إلى وضع أسس عامة للغة و مبادئها الرئيسية(15)

و المتأمل في كتاب سيبويه يلاحظ تركيز الخليل على الأبواب اللغوية محاولا أن يبرز نصيبها من التعليل، ويخلص إلى استنتاج يطمئن العقل إليه، و مفاده: أن التعليل ظاهرة ثابتة مستقرة راسخة في الكتاب.

و أما النص الوارد في إيضاح الزجاجي المنسوب إلى الخليل ففيه تصور الخليل للعلة على أنها بناء كامل و صرح شامل متماسك العناصر، مؤتلف الأجزاء، محكم الصياغة منسجم الأعضاء و الأقسام، لكل قسم من أقسامه غاية و لكل عنصر من عناصره سبب و هدف.

قال الزجاجي [ت 337 هـ] :" و ذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد رحمه الله، سئل عن العلل التي يعتل بها، فقيل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ " فقال : " إن العرب نطقت على سجيتها و طباعها، و عرفت مواقع كلامها، و قام في عقولها علله، و إن لم ينقل ذلك عنها و اعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه، فإن أكن أصبت العلة، فهو الذي التمست. و إن تكن هناك له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دار محكمة البناء، عجيبة النظم و الأقسام، و قد صحت عنده حكمة بانيها، بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة و الحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا و كذا، ولسبب كذا و كذا؛ سنحت له و خطرت بباله محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار و جائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها ." (16).

و هاتان الوثيقتان تشيران إلى واقع عمل الخليل في بسطه لمفهوم العلة حيث تنعطف إلى المعنى الشامل العام الذي كان بعض المتقدمين يريدونه من الأسباب الداعية إلى تلك الأحكام و هذا في حقيقته يُنبئ عن واقع منهج الخليل ومن جهة أخرى يدلنا على المفاهيم العامة للتعليل و منطلقاتها الأساسية عنده حيث لم يحد الخليل – كما تفيد النقول– عن سنن البحث العلمي الأصيل الذي يبدأ بملاحظة الظواهر التي يشتمل عليها موضوع بحثه، و العمل على تصنيف هذه الظواهر ثم استخلاص القانون الجامع الذي يفسر هذه الظواهر أيضا، و على يده تكامل منهج البحث و تحددت أدواته و مذاهب التحقيق فيه، و كثير من أصول منهجه قد أبان عنها خالفوه من النحويين كما استظهروها من تدبر كلامه كيف لا و هو سيد العرب و علمائها و كاشف قناع القياس في عمله و درسه (17) و لا يكون الخليل إلا كذلك فهو الغاية في بحث مسائل النحو و بلغ

في مبحث العلة مبلغا عاليا حتى أدرك دارسو العربية من بعده أنه هو الذي بسط النحو و سهل غاياته في تصحيح أقيسيته و تعليل مسالكه و استخلاص أحكامه (18)

و هذا المنهج التعليلي الذي تصوره الخليل و امتد في أعمال جمهور من النحاة، منهج مستمد من طبيعة الهدف الذي يرمي إليه البحث النحوي، و هو استنباط جملة القواعد و القوانين التي تحكم لغة العرب في صياغة ألفاظها المفردة و صياغة الجمل أو التعابير المركبة التي تؤدي معنى يكون مقصودا إليه. و مثل هذه الأمور التي أخذ فيها الخليل بهذا المبدإ جاءت مطابقة لما ثبت في الدراسات اللغوية . و تجلت فيما انتهى إليه المحققون من علماء اللغة المحدثين، و هو ما يؤدي بنا إلى القول : إن منهج العلة الذي قعده الخليل يصلح أن يكون قانونا شاملا لجميع اللغات. و في هذا نلمح تجليات عبقرية الخليل الفذة التي نبه عليها السيوطي عندما قال إن الخليل "أعلم الناس و أذكاهم و أفضل الناس و أتقاهم" (19)

2- طابع التعليل عند الخليل

لقد تميز طابع التعليل عند الخليل بعدة خصائص نذكر منها على سبيل المثال:

أ- التعليل الفطري

لقد قضت النظرة العلمية الموضوعية للخليل أن يتصور أن أوضاع كلام العرب جاء- في معظمه- على ما تقتضيه الحكمة الطبيعية لنفسيتهم و فطرتهم السليمة . فكان ينطلق في تعليلاته من الكلام العربي، و ما كان يدور في خلجات نفسه. حيث كانت أراؤه مستمدة من حسه و خبرته بنفسية العربي بعيدا عن حقائق الفلسفة و قضايا المنطق، حيث لم تكن بلغت أشدها بعد فيكون لها في النحو أثـــــر و في تفكير النحويين سبيل (20)

و لم يخرج في تعليله على ملاحظة الظواهر و متابعتها و هو الأصل الذي يقوم عليه التعليل في العلوم قاطبة، و هو أنه إذا ما اقترنت ظاهرتان وجودا أو عدما فإنهم يعتبرون إحدى الظاهرتين علة و سببا للأخرى.

و هذا المنحى الطبيعي الذي سلكه الخليل بارز في تحليله؛ إذ يعتقد أن التعليل مركوز في طبائع العرب، معروف بالمنة فيهم دون ملحاة، أما مهمته فتقتصر على تبرير طرائق التركيب و التدليل على وجود تلك الأبنية الوظيفية في الكلام و تعليلها بما يتلاءم و حقيقة مظاهرها، و تلك هي الطريقة الشكلية في متابعة الظواهر، أو الخطوات الوصفية في صلب التحليل اللغوي مع ما يضمنه العمل العلمي من التجرد و الموضوعية (21).

ب- إن كثيرا من الاعتلالات التي اعتل بها إنما يومئ إليها إيماء، ثم يستخرجها من كلامه من تهيأ له النفاذ إلى ما أراد من النحاة ، و ربما أقاموا أحكاما على علل لم يشر إليها فتستخرج من قبل المذكورين من بعده عند التأمل في أعطاف كلامه، و قد نص على ذلك صراحة ابن جني عندما أشار إلى أن العلل تستنبط من كلام من كانوا يشافهونهم من ذوي الطباع اللغوية الصحيحة من الأعراب و ذلك بالنظر و التأمل في طريق بنائهم للأحكام و إن لم يكن هو نفسه قد صرح بالأصول و العلل التي بنى عليها تلك الأحكام و في هذا يؤكد ابن جنى "و إنما مكنت القول في هذا الموضوع ليقوى في نفسك حسّ هؤلاء القوم، و أنهم قد يلاحظون بالمنة و الطباع، مالا نلاحظه نحن عن طول المباحثة و السماع ، فتأمله ففي الحاجة إلى مثله ظاهرة" (22)

و هكذا كان النحاة اللاحقون يرون أن ما اعتل به الخليل و رجال طبقته إنما هي علل لغوية صرفة مدارها على أسباب لغوية بينها الحس قبل أن ينفذ إلى إدراكها الذهن، و تجري في أكثرها مجرى القوانين اللغوية المستمرة التي تتفرع عنها كثير من الأحكام التي تتخذ شكل قوانين مطردة.

جـ - التعليل العقلي

نؤكد بادئ ذي بدء أن الثقافة العربية في مراحلها الأولى ليست خلوا من النظر العقلي ما دامت تحتكم إلى النصوص. و كان نشاط الثقافي العربي و الإسلامي يجعل الاجتهاد أصلا من أصوله عند تعذر النص الواضح، و كان لابد لهذا الاجتهاد أن يقوم على أصول و قواعد.

و لقد كان المنحى العقلي الذي تبناه علماء الفقه خاصة أتباع أبي حنيفة [ت 150 هـ] الأثر العظيم في بروز التيار الاجتهادي في تخريج الأحكـــام، و قد كان الخليل من أنصار هذا المذهب.

لجأ الخليل إلى التعليل العقلي مستمدا إياه من ثقافة عصره و ظروف بيئته، كما يعد الخليل في ذاته حلقة انتقال إلى التعليل بالرأي و الجنوح نحو الاجتهاد الفكري الذي ميزه منهج الكلاميين ففتح باب التفريع و التخريج في مسالك العلة بسبب اعتداده بسلطان العقل، و نقل البحث إلى مرحلة التجريد فخرج به إلى منهج الغائية الذي هو سبيل المتكلمين، و لا ريب في ذلك فالخليل نفســه كلامي(23)

و علل الخليل بعض الأحكام بعلل عقلية، و خرج بعض القواعد تخريجات مبنية على الذهن و الإدراك، و ذلك عندما يتعلق الحكم بمعقولية الكلام، و ما جاء به من وجوه التعليل التجريدي في هذا الجانب لا مغمز فيه من جهة أنه فرض لاعتبارات عقلية بحتة فرضت على اللغة من ذلك ما حكاه سيبويه عن الخليل في مسألة العطف على ضمير الرفع المتصل و ضمير الرفع

المستتر في باب : (يحسن أن يشرك المظهر المضمر فيما عمل فيه، و ما يقبح أن يشرك المظهر المضمر فيما عمل فيه) (24)

و هذا التعليل المبني على إعمال الرأي أساسه الاجتهاد و يمكن أن ندخله في عملية النظم اللغوي بصفة عامة ، تلك الفكرة التي استلهمها عبد القاهر الجرجاني [ت 471 هـ] في كتابه دلائل الإعجاز.

3 – أ صناف العلل

الناظر في مسألة العلل التي جاء بها الخليل بن أحمد و التي تستنبط من كتاب سيبويه، يرى أنها شاملة، و قد غطت مستويات الدرس اللغوي المعروف اليوم: (الصوت ، الصرف، النحو و الدلالة)، كما يخلص إلى استنتاج علمي مفاده : أن تعليل الخليل ظاهرة مستقرة ثابتة في الكتاب و تتردد في كل باب كما تتردد في مؤلفات المحققين من بعده.

و ما يعنينا من ضروب التعليل التي صاغها الخليل لبناء قواعد العربية وتبرير أحكامها أن نحاول تقريب تنظيره المنهجي في هذا المجال و ما جدّ من أبحاث لسانية حديثة و جادة، إذ نستبين في بعض تعليلاته ملامح الطريقة الوصفية، فكثيرا ما كان يقرر القواعد و يؤسس الاستنتاجات على ضوء ما يسمعه، أو ما يجمعه، و كيف لا يكون كذلك و هو أحد جُمّاع اللغة و رواتها، فقد بنى بعض الأحكام على أسس تقريريه محضة، لا مكان فيها للمعايير المفروضة من خارج الواقع الحقيقي للغة المستعملة.

و الحقيقة ، فعند تتبعنا لبعض تعليلاته التي سميناها: تجاوزا وصفية، قد أقيمت على ملاحظة طرائق التوظيف الفعلي للعربية من جهة، و على قواعد تنظيم العبارات و التراكيب من جهة ثانية و هما القضيتان اللتان سنركز عليهما في هذا التحليل.

ا- التعليل الصوتي

يعتبر الخليل من أوائل علماء العربية الذين التفتوا إلى فكرة التعليل الصوتي (25) و تمكن من بلورة وظيفته و تجلية صورته، فقد لاحظ ذلك التفاعل بين الحروف و الكلمات و ما لهذا الانسجام من أثر في الاستعمال (26).

و يطلق على هذا التفاعل الصوتي بالتماثل الذي يسببه التمازج بين الصورة الصوتية و الحدث أو الفعل، و هو بذلك يومئ إلى وجود علاقة طبيعية موحية بين الصوت و قيمته اللغوية و البيانية (27).

و قد بذل ابن جني جهدا حميدا ذلل لنا رؤية الخليل، و ساهم في توضيحها في باب سماه : "إمساس اللفظ أشباه المعاني" (29).

و استهل حديثه بإشادة و فخر لما اكتشفه الخليل في هذا الموضع الشريف،و هذا المبحث الطريف، يقول ابن جني :"اعلم أن هذا موضع شريف لطيف،و قد نبه عليه الخليل و سيبويه و تلقفته الجماعة بالقبول له و الاعتراف بصحته" (30). قال الخليل : كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة و مدا، فقالوا : صرّ و توهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا : صرْصرَ (31).

و هذا التعليل الصوتي يطلق عليه مصطلح : "Onomatopie" أي المجانسة بين الشكل و الحدث.

و تعليلات الخليل في المجال الصوتي كثيرة و متداخلة لا تنأى كثيرا عن فهم الوظيفيين لما تحدثه اختيار الفونيمات من دلالات متغيرة. (32) و من تعليلاته الموضوعية التي استخلصها من فهمه لطبيعة المتكلم العربي و إدراكه لسحر العربية التي تجنح كغيرها طواعية للتخفيف بالإعلال و بالإبدال.

و قد مثلنا من صور هذه البدائل تمثيله للإعلال في ما رواه سيبويه عن أستاذه ، سجله في باب الإضافة إلى فعيل و فُعيل من بنات الياء و الواو التي الياءات و الواوات لامتهن و ما كان في اللفظ بمنزلتهما.

يقول سيبويه :"و سألته – يقصد الخليل– عن الإضافة إلى حية فقال :حيويٌّ ، كراهية أن تجتمع الياءات و الدليل على ذلك قول العرب ": في حية بن بهدلة حيويٌّ وحركت الياء لأنه لا تكون الواو ثانية و قبلها ياء ساكنة".

لقد فسرَ هذه الإضافة بما حدث من تغيير في صيغة الكلمة حيث أبدلت الياء واوا نزوعا إلى اجتناب الثقل الناتج عن تتابع أربع ياءات في الاسم الواحد لأن العرب كرهوا أن تتوالى في الاسم أربع ياءات فحذفوا الياء الزائدة الموجودة في مثل سليـــم و ثقيف حيث استثقلوا هذه الياءات فأبدلوا الواو من الياء (33).

ب– التعليل بالاستعمال

ظل اهتمام الخليل منصبا على اقتفاء أثار المتكلمين العرب الأقحاح، و لذلك قصد بيئات الحجاز و تهامة. (34)

فأخذ علمه من أفواه تلك القبائل نزيلة هذه البوادي فحفظ و دون ما يزيد عن عشرين رطلا (35) ثم جاء عمله التقعيدي حيث استنتج كثيرا من قواعد العربية بناء على ما سمعه من الأعراب أو ممن شافههم من ذوي السلائق الحسنة، و هو بهذا الصنيع العلمي لا يختلف عما سنه الوصفيون المحدثون،كما يقرر ماريو باي: " و إن مجال بحث عالم اللغة الوصفي يتمثل حقيقة في حقل اللغات الحية حيث يمكن تزويد الباحث بأحد أبناء اللغة الذين يتكلمون بها، و

هو الذي يعرف فنيا باسم الراوي اللغوي : Informant" [...] فهؤلاء الرواة يمكنوا أن ينتقوا من بين من يحسنون تمثيل المستوى اللغوي المراد تحليله و تقعيده" (36).

و من خلال تنقلاته بين البيئات العربية وقف الخليل على تباين لهجات الأعراب، و لاحظ خصائصها الاستخدامية، و سجل ما تتميز به كل لهجة من عادات قولية، و هو ما جعله يدرك أن لغات العرب تشترك و تختلف في ظواهر متنوعة، و بالتالي فلا يمكن تفضيل بعضها على بعض إلا ما كانت عيوبها فاشية.

و ظل هذا المنحى -في نقل اللهجات- ديدنه و مبتغاه فها هو يجري في استخلاص القواعد و تقنينها على المأثورات المحكية و النسوج المستعملة و المتداولة دون النظر إلى الكثرة أو القلة من مستخدميها و في تخريجه لأنظمة الاستعمال اللغوي أدى به إلى التركيز على أهمية اللهجات و من جهة أخرى لم يغفل المواقع اللسانية للعربية ، تلك الممتدة شمالا و جنوبا بأقاصي صحاري بلاد العرب. و مثل هذا الفعل الجاد الذي سار عليه الخليل لا يبتعد عن منهج البحث التحليلي لعلماء اللغة الوصفيين الذين أسسوا علم اللغة الجغرافي الذي جعل دراسة اللهجات من أجلّ أعماله التطبيقية.(37)

لقد عاش الخليل ردحا من الزمن منتقلا بين البوادي متعرّفا إلى لهجات الأقوام، فكان متقبلا للهجاتهم مسلما لمنطوقهم، و لنا في موقفه العلمي الهادئ المتزن من بعض القراءات الشاذة، خير دليل على سعة ذلك العقل المتبصر الذي تلمس لتلك القراءات أوجها صحيحة، رادا إياها إلى مما اختلف من منطوق الناس، فها هو يخرج قراءة عاصم الجحدري (ت 84 هـ) : (وَ مَن تَقَنَتْ لله..) (38) بالتاء، على تحميل (مَن) معنى (التي) (39) و يفضل قراءة الأعرج : (يا جبـــالُ أوّبي مَعَهُ والطيرُ) (40) برفع الطير (41).

و لعل خير ما يؤكد هذه الروح العلمية المتسامحة من معاودة تلميذه -سيبويه- و مراجعته له في كثير من القضايا المستعصية، من ذلك أن سيبويه سأله عن وجه من وجوه الحركة الإعرابية في (أيهم) من قوله تعالى :"ثم لنَنزَعَنَّ مِن كلّ شيعـــةٍ أيُهم أشدُ على الرحمَانِ عُتيَا"(42) فقال: القياس : النصب (43)

و هكذا ترى هذا الإبداع الفذ في تخريج هذه المسائل النحوية و تقف على هذه العبقرية المتميزة الخالدة التي كانت الغاية في استخراج مسائل النحو و تصحيح القياس فيه كما جاء على لسان أبي سعيد السير أفي (44) فقد كان الخليل قليلا ما يرد قراءة أو يرفضها، و هو أعلم الناس بلهجات العرب بل يخضع أقيستـــه لها و يعدها صحيحـــة غير مأبيـــة في بيئة الاستعمال و القياس (45).

هذا هو المنهج الأول الصحيح الذي أسسه الخليل و هو أن يخضع القياس للكلام المنطوق و ليس العكس كما شدد النحاة من بعده فحادوا عن ذاك المنهج السديد.

و من ضروب ذاك المنهج السديد قياسه قول العرب :"و لا سيما زيدٌ (46) على قراءه رؤية الحجاج، (إنَ الله لا يَسْتَحِي أنْ يضْرِبَ مثلاً مَا بَعُوضةٌ) (47) بالرفع (48) فيحتج بها كاحتجاجه لجواز الرفع فيما ينتصب في المعرفة كقولهم "هذا عبدُ الله منطلقٌ" (49) بحرف ابن مسعود : (وَ هَذَا بَعْلِي شيخٌ) (50).

هكذا كان الخليل، و قد أجمع دارسو العربية على أن هذا الرجل كان أعظم عالم في درس العربية حيث تميز بتمسكه بما ورد عن العرب دون تطبيق معايير عرف بها عصره، و قد حرص على قبولها خاضعا مقاييسه لأصولها مصححا أدواته وفق ما تقتضيه قواعدها.

جـ- التعليل بالعامل

في أول صفحة من أول أثر نحوي مدون يقترن الإعراب و علاماته بما سماه سيبويه :"العامل "و تتجلى آثاره في تعاقب علامات الإعراب على آخر الكلمة المعربة، و من ثمة لا يمكن التفريق بينهما، فالعامل يقتضي أثرا هو الإعراب و الإعراب يقتضي مؤثرا هو العامل ،و على هذا يمكن القول مع فايس [J- Weiss] بأن "العامل و الإعراب هما المحور الذي تدور حوله نظرية النحو عند نحاة العرب." (51).

و اتفق المحققون من نحاة العربية على أن محدث الإعراب أو مقتضى الإعراب هو العامل و هو :"كل ما رفع أو جر أو نصب أو جزم" (52)

و الذي نقصده بأول أثر نحوي مدون كتاب سيبويه (قرآن النحو) الذي وطد فيه نظرية العامل التي استوحاها من فكر الخليل و هي أهم مقولة نحوية اهتدى إليها هذا العالم الجليل و تتعلق بنظم الكلام و مرتبطة بطبيعة العربية و هي أنها لغة معربة و لا يراد بالعامل ذاك الذي أحدث بذاته حركة الإعراب، و إنما هو عامل اقتراني أي لما اقترن هذا اللفظ أو ما في حكمه أعطى اللفظ المقترن به حكما إعرابيا و لولا أنها كانت موضع مغالطة من قبل ممن تصدوا لنقد الأسس التي أقام عليها بناءه للنحو، (53) و مع ذلك فإن نظرية العامل هي من أهم ما اكتشف الخليل، و أهميتها تمتد إلى إيجاد تفسير شامل و تحديد دقيق لمواضع عناصر العبارة بعضها ببعض (54).

و اهتدى سيبويه إلى التعريف بمجاري هذا العامل و سعى إلى إحصاء عددها قائلا :" إنما ذكرت لك ثمانية مجار لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل- و ليس شيء منها إلا و هو يزول عنه- و بين

ما يبني عليه الحرف بناءً لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكل عامل منها ضرب من اللفظ في الحرف و ذلك الحرف حرف الإعراب." (55).

و لا شك في أن هذا التفصيل مما فهمه سيبويه من تنظير الخليل و يمكن الرجوع في هذه القضية إلى ما حصله من نماذج تطبيقية (56) و قد اخترت من تلك النماذج واحدةً أوردها تحت باب :"ما ينتصب لأنه ليس من اسم قبله و لا هو هو"(57) و مثال ذلك قولهم : هذا درهمٌ سواءٌ. كأنهم قالوا: هذا درهمٌ استواءٌ فهذا تمثيل و إن لم يتكلم به. قال عز وجل : "في أربعةِ أيامٍ سواءً للسائلين" (58) غير أن أناسا قرأوها بالرفع : (سواءٌ) و بالجر (سواءٍ) (59) قال الخليل معللاً : جعلوها بمنزلة مستويات (60) نعت لأيام، و قد نصبت على الحالية ورفعت على حذف المبتدأ.

و يمكن الرجوع في هذا التوجيه الظاهري إلى مسألة العمل في الجملة الاسمية حيث يرتفع الخبر لأنه مبنى على المبتدإ (61) و قد ضاهى هذا التوجيه الظاهري على شاكلة ما يقع في الجملة الفعلية حيث يعمل الفعل في الاسم الذي بعده وهو الفاعل ، يقول سيبويه :" إن المبتدأ يعمل فيما بعده كعمل الفعل فيما يكون بعده" (62).

و هكذا ترى كيف ربط الخليل بين الأثر الإعرابي و العامل الإعرابي الذي هو قرين القياس و نتيجة العلة.

و الذي يولي كتاب سيبويه فضل نظر سوف يجد أن كثيرا ممن روى عنهم سيبويه أنهم كانوا يستخدمون ضروبا من العلل تختلف من حيث السهولة والإغراق. (63) و لعل أكثر العلماء تصدرا- دون منازع- في كتاب سيبويه أستاذه الخليل الذي بدا علمه فيما صنفه تلميذه.

و مجمل ما ذكرنا في هذا الضرب من التعليل بالعامل يمكن تبويبه على أساس التحليل الشكلي للظواهر النحوية خاصة، فقد فسر كثيرا من تلك الضروب على ضوء صيغها التركيبية كما تجلى في تركيب الجملة الاسمية، فقد صنف الأول مبتدأ و الثاني خبرا، رغم أنهما يشتركان في إحداث المعنى و لكن فهمه للعلامة الإعرابية الظاهرة على آواخر اللفظة جعله يطرح المعنى عند تبرير تلك التراكيب.

و يعتبر هذا التحليل الشكلي أهم مبدأ من مبادئ النحو الوصفي (64) و قد تلقفه أصحاب المذهب التوزيعي خاصة و قد عالج الخليل عدة قضايا لغوية من مثل التذكير و التأنيث و التعريف و العلاقة بين الفعل و الفعال و المبتدأ و الخبر على أساس الأشكال و الصيغ و ليس على أساس الدلالات و المعاني مما يدل على سلامة منهجه و صحة القواعد التي أقام عليها مبادئ الدرس اللغوي و لربما اقتبس بعض اللسانيين بعضا منها.

وبعد هذه المقاربة العلمية المنهجية نخلص إلى القول :
- إن الخليل قد قدر موضوع العلة و سن قوانينها فكان يقدر لكل تركيب أو عبارة تقتضي التوضيح و التفسير مبررا يسهل فحواها .
- لجأ إلى تقديم العوامل ليوضح ما استصعب فهمه
- عول في تعليله على الإعراب لإدراك المعنى في الجملة.
- جمع بين التعليل الفطري و التعليل المؤسس على التجريد.
- يقترب منهج الخليل في دراسته للعربية من بعض خطوات المناهج اللسانية الحديثة وأقربها المنهج التوزيعي.
- يرجع للخليل الفضل الأكبر في الاهتداء إلى بعض مفاتيح البحث اللغوي العربي، ويعود ذلك إلى عقيدته الراسخة وسليقته العربية السليمة ومخالطته للأعراب في بيئاتهم.

و مجمل القول: أن أصالة العلة عند الخليل كانت في السياق الطبيعي للتطور العلمي للعربية و التأثر بالثقافة الدينية التي كان المجتمع العربي يزخر بها.فأسس
منهجه من واقع البيئة العربية لا من خارجها. فلا ضير أن يتلمسها الدارسون منها.

المراجع و الهوامش

1- اختلف الدارسون العرب في صكّ مصطلح مشترك لهذا العلم الذي عرف بالفرنسية " Linguistique".
- قد عقد مؤتمر علمي بتونس بتاريخ 13 ديسمبر 1978، قرّر المشتغلون بالدراسات اللغوية استبدال تسمية "علم اللغة" "باللسانيات" غير أن هناك من العلماء الحضور من احتفظ بمصطلح "علم اللغة" متذرعا بجملة من الأسباب اللغوية، منهم الأستاذ، تمام حسان. ينظر كتابه : الأصول، دراسته ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982، ص 266 هـ 1 و ص271.
و أصبح مصطلح علم اللغة، أكثر شيوعا من غيره في استعمالات الباحثين تدريسا و تأليفا. و لهذا و غيره آثرث استعمال مصطلح علم اللغة.
- د-محمود السعران
2-علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي، طبعة دار الفكر العربي، ط2 ، القاهرة 1997 ،ص15، المقدمة.
- د- تمام حسان

3-اللغة العربية معناها ومبناها، طبعة عالم الكتب ط3، القاهرة 1998،ص 178 و ما بعدها.

4 - حدد عبد القاهر الجرجاني [ت 471 هـ] أسس العلاقات اللغوية التي يجب أن تقوم عليها عملية التنظيم قال :" اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، و تعمل على قوانينه و أصوله" ينظر دلائل الإعجاز، مطبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، تقديم علي أبو زقيـة 1991، ص 44. و انظر قوله أيضا إن " مدار النظم على معاني النحو و على الوجوه و الفروق التي من شأنها أن تكون فيه". م ن، ص 99
د- حلمي خليل

5- مقدمة لدراسة، فقه اللغة دار المعرفة الجامعية، اسكندرية 1995 ، ص 109

6- لم يفرق كثير من القدامى بين النحو والعربية، ينظر الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ص 269.
-الزجاجي أبو القاسم(ت337 هـ)

7- الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، طبعة دار النفائس ط5، بيروت ص 41 .
د- عبده الراجحي

8- النحو العربي و الدرس الحديث بحث قي المنهج دار النهضة ، بيروت 1979 ص 80 .

9- لقد ترددت أخبار قليلة تتحدث عن أسرة الخليل فقد ذكر أن والده أحمد كان أول من لقب بهذا الاسم بعد وفاة الرسول (ص) تيمنا به وتلميحا إلى منزلة هذه الأسرة الشريفة حيث ترعرع الخليل على مائدة حب أهل البيت و قد قيل: "كان أهل العربية على عهد هذه الطبقة كلهم أصحاب أهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة : أبو عمرو بن العلاء و الخليل بن أحمد و يونس بن حبيب البصري و الأصمعي "و تجلت عقيدة الخليل في عفته و ظلفه فقد أقام في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلس و أصحابه يكسبون بعلمه الأموال" ينظر كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة دار الكتب العلمية،ج 01، ص12.

- و من أضخم أعماله العلمية التي تنسب إلى الخليل، كتابه العين و هو أول معجم منظم كامل باللغة العربية. و مزج في هذا المعجم بين علمه بالعربية (أصواتا، و صرفا و نحوًا و دلالة) و علمه بالغة أو كما نقول اليوم : فقه اللغة أنظـر الأصـول دراسـة ابستيمولوجيـة للفكر اللغوي عند العرب، ص 258.
- د- تمام حسان

10- الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2 القاهرة1982 ص 257.
د- عبد الفتاح دجني
11- أبو الأسـود الدؤلي،و نشأة النحو العربي، دار القلم، ط1، بيروت 1974، ص63
12- الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، ص 257
13- الإيضاح في علل النحو، ص 65،66
- ابن الأنباري: كمال الدين ابو البركات [ت 577 هـ]
13- نزهة الألبا في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي مكتبة الأندلس،
14- بغداد 1970، ص 45.
15- قارن السيوطي بين مهام اللغوي و النحوي، فقال : " اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب و لا يتعداه، و أما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي و يقيس عليه " المزهر في علوم اللغة و أنواعها تحقيق مولى جاد الحق بك و رفاقيه طبعة المطبعة العصرية بيروت ج1ص115 .
16- الإيضاح في علل النحو ، ص 65،66
17-الخصـائص ، تحقيق محمـد على النجـار - طبعـة دار الكتاب العربي، ح1،ص361.
- د-منى إلياس
18- القياس في النحو، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،ص22
- السيوطي جلال الدين(ت 911هـ).
19-المزهر في علوم اللغة و أنواعها تحقيق مولى جاد الحق بك و رفاقيه طبعة المطبعة العصرية بيروت ج1،ص115.
- د أحمد مختار عمر.
20- البحث اللغوي عند الهنود و أثره على اللغويين العرب،طبعة دار الثقافة، بيروت 1972، ص 127 .
د- حنفي بن عيسى
21- محاضرات في علم النفس اللغوي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ص 53 وما بعدها.
22- الخصائص ج1،ص 276 ،و ينظر المزهر ج2، ص 496.
- د مهدي المخزومي

23- مدرسة الكوفة و منهجها في دراسة اللغة و النحو، طبعة دار الرائد العربي، ط2، بيروت، 1986 ، ص 41
سيبويه: أبو بشر عثمان بن قنبر [ت 180هـ]
24-الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة عالم الكتب ط3، بيروت 1983 ج1،ص 391.
25- التعليل الصوتي : نعتقد أن أول اعتلال صوتي تجلى عند الخليل عند تأليفه لأول معجم عربي وهو (معجم العين) علل فيه ترتيبه و تنظيم حروفه حسب مخارجها مقتنعا أن صوت العين هو أبعد صوت في المدرج الحلقي.
26-الخصائص، ج2، ص 252 و ما بعدها.
27- و هذا ما يؤكد أن اللغة نشأت عن طريق المواضعة أو المحاكاة الصوتية أو الممازجة الطبيعية بين الدال و المدلول و قد أشار السيوطي إلى ذلك في باب سماه "المناسبة بين اللفظ و مدلوله " و ضرب مثلا في كلمة سئل أحد الرجال (عباد بن سليمان) و هو معتزلي عن معناها و هذه الكلمة هـــي : (أدغاغ) فارسية تعني الحجر فقال : أجد فيها يبسا شديدا و أراه الحجر، ينظر المزهر في علوم اللغة،ج1ص48
د- صبحي صالح
28- دراسات في فقه اللغة،طبعة دار العلم للملايين، بيروت، ط11 ، 1986، ص 148 و ما بعدها.
و هذا فتح كبير في أبحاث فقه اللغة ذلك أنه يؤسس -كما نرى- لنظرية لغوية عربية شاملة تستحق المتابعة و الدرس.
29- الخصائص ، ج2، ص 152
30- الخصائص ج 2، ص 152.
31- الخصائص ج 2، ص 152. و في هذا الرأي تلميح الخليل إلى نشأة اللغة على أنها نتجت بسبب المحاكاة الصوتية
- سليم بابا عمر ، و باني عميري.
32- اللسانيات العامة الميسرة، الجزائر 1990، ص 73، هـ1.
33- الكتاب ج3، ص344
34- نزهة الألبا في طبقة الأدباء ، ص 55
- د عبد الله بن حمد الخثران
35- مراحل تطور الدرس النحوي دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية 1993 ، ص 170
- ماريوباي

36- أسس علم اللغة ترجمة أحمد مختار عمر ، طبعة عالم الكتب، طبعة 3 ، القاهرة، 1987، ص 120

37- م ن ، ص64

38- سورة الأحزاب الآية 31 (و مَن يقنتْ منكنّ) بياء الغائب.

39- الكتاب ج2، ص 115 .

40- سورة سبأ، الأية 10 (و الطيرَ) بالنصب أما اختيار الخليل فهو الرفع.

41- الكتاب ج2، ص 187 .

42- سورة مريم ، الأية 69، القراءة المشهورة (أيُهم) بالرفع أما قراءة النصب فهي قراءة الكوفيين و هم عاصم،حمزة، الكسائي، ينظر الكتاب ج2، ص 399 ،هـ 2.

43- الكتاب ج2، ص 399

- السيرافي أبو سعيد الحسن ابن عبد الله (ت 368 هـ)

44- أخبار النحويين البصريين تحقيق محمد الزيني، و عبد المنعم خفاجة، طبعة الحلبي 1955 ، ص 30.

- د أحمد محمود الصغير

45- القراءات الشاذة و توجيهها النحوي، طبعة دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت 1999، ص 110 و ما بعدها.

46- لهذا التركيب وجوه إعرابية مختلفة ينظر عباس حسن النحو الوافي طبعة دار المعارف ج1 ص401.

47- سورة البقرة الآية 26 (بعوضة) بالنصب قراءة سبعية

48- الكتاب ج2ص286

49- م ن، ص83

50- سورة هود الآية 72 (شيخاً) قراءة سبعية

- د -محمد حماسة عبد اللطيف.

51- العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم و الحديث طبعة دار غريب، القاهرة 2001 ص 159.

-الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمان(471هـ)

52- الجمل تحقيق علي حيدر دمشق1972ص12

- فند ريس -ج

53 -اللغة، ترجمة الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية 1950 ص77

54- الكتاب ج1ص13

55 - الكتاب ج2ص110-114-118
56- م ن، ص118
57- سورة فصلت الآية 10
58- قرأ الجمهور (سواءً) بالنصب على الحالية وقرأ أبو جعفر (سواءٌ) بالرفع أي على تأويل حذف المبتدأ وقرأ الحسن وغيره (سواءٍ) بالخفض نعتا بأربعة أيام انظر الكتاب ج2 ص119.
59- الكتاب ج2 ص119
60- م ن، ص86
61-م ن، ص87 ويقصد أنه لا يوجد إلا عامل واحدٌ في الجملة الاسمية بينما أجاز الكوفيون اجتماع عاملين على عامل واحد.ينظر ابن الأنباري الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق عبد الحميد محي الدين المطبعة العصرية، بيروت 1988 ج 1 ص 44.
-د-مازن المبارك
62- العلة النحوية نشأتها وتطورها طبعة المكتبة الحديثة ط 1 بيروت 1956 ص51 وما بعدها
63- أسس علم اللغة لماريو باي ص54 .